

الفصل الأول

الأداء السياسي الإسرائيلي خلال العدوان

الأداء السياسي الإسرائيلي خلال العدوان

أ. عبد الحميد الكيالي*

مقدمة:

جاء العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة أواخر سنة 2008 في سياق سياسة إسرائيلية تبنتها الدولة العبرية على مدار العام راوحت بين أسلوب الخنق الاقتصادي وإغلاق المعابر من جهة، والضغط العسكري والحملات العسكرية من جهة أخرى. ونتيجة هذه السياسة الإسرائيلية فقد شهد شهر كانون الثاني / يناير 2008 تدمير جزء من الجدار الفاصل على الحدود الفلسطينية المصرية جنوبي قطاع غزة. وتدفق إثر ذلك مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى مدينتي رفح والعريش المصريتين للتزود بحاجاتهم الأساسية قبل أن يُعاد إغلاق الحدود بين القطاع ومصر في وقت لاحق من شهر شباط / فبراير 2008.

وفي إطار المراوحة بين نموذج الخنق الاقتصادي والضغط العسكري في التعامل مع حركة حماس في قطاع غزة، شنّ الجيش الإسرائيلي في 2008/2/27 حملة عسكرية على القطاع تحت اسم "الشتاء الساخن" استمرت حتى 2008/3/3. وتذرعت "إسرائيل" في عدوانها هذا بإطلاق فصائل المقاومة الفلسطينية للصواريخ على البلدات الإسرائيلية المجاورة لقطاع غزة. غير أن العملية أثبتت على المستوى السياسي صعوبة القضاء على حركة حماس، بوصفها حركة سياسية واجتماعية، بالوسائل العسكرية، أو بمعنى آخر تراجع خيار الحسم العسكري على الأجندة الإسرائيلية، ولو بشكل مؤقت، كحلّ تطرحه بعض أوساط المؤسسة الإسرائيلية في التعامل مع الواقع القائم في قطاع غزة.

وفي أعقاب حملة "الشتاء الساخن" واصلت "إسرائيل" حصارها الاقتصادي وإغلاقها شبه الدائم للمعابر، وفي 2008/5/27 أشار مسؤولون في وزارة الدفاع الإسرائيلية إلى أن الجيش يخطط لتقليص عدد المعابر الحدودية، ونقلها إلى عدة كيلومترات داخل الأراضي الإسرائيلية، بغية إنشاء منطقة عازلة مع قطاع غزة¹.

*باحث متخصص في الشؤون الإسرائيلية، الأردن.

وفي منتصف سنة 2008 مضت "إسرائيل" نحو اتفاق تهدئة، برعاية مصرية، مع حماس وفصائل المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة، في محاولة منها لوقف الهجمات الصاروخية على سديروت وعسقلان والمستوطنات المحيطة بقطاع غزة. وبهذا اعترفت "إسرائيل"، وإن كان بصورة غير مباشرة ومؤقتة، بحماس على أنها الجهة المسيطرة في غزة و"كطرف ممكن للتعايش". وقضى الاتفاق بأن تكون مدة التهدئة ستة أشهر (2008/6/19-2008/12/19)، وأن توقف "إسرائيل" هجماتها على قطاع غزة، وترفع الحصار، وتفتح المعابر، مقابل أن توقف فصائل المقاومة إطلاق الصواريخ والعمليات الفدائية. كما لم يستبعد الاتفاق أن تمتد هذه التهدئة إلى الضفة الغربية في مرحلة لاحقة. وبالرغم من أن اتفاق التهدئة الأخير أعطى التزامات أكثر تحديداً من الجانب الإسرائيلي، غير أن "إسرائيل" أصرت منذ عرض التهدئة على تطبيق مبدأ الهدوء مقابل الهدوء مع تجاهل تخفيف الحصار، ورفض فتح معبر رفح وبقية المعابر؛ للاحتفاظ بأدوات الضغط الاقتصادي بهدف إسقاط حكومة حماس، ومن أجل التمهيد لرسم مستقبل سياسي جديد للقطاع.

وتعرض هذه الدراسة المواقف السياسية الإسرائيلية خلال العدوان على قطاع غزة، ومن ثم تبين الظروف التي أدت إلى العدوان والأهداف الإسرائيلية من ورائه. كما تحلل الدراسة طريقة إدارة المستوى السياسي في الدولة العبرية للعدوان والمفاوضات حول وقف إطلاق النار، وأخيراً تتناول نتائج هذا العدوان وتداعياته على الصعيد الإسرائيلي.

أولاً: عرض للمواقف السياسية الإسرائيلية:

شهدت الساحة السياسية الإسرائيلية عقب انتهاء فترة التهدئة في 2008/12/19 إجماعاً على ضرورة شن هجوم واسع على قطاع غزة، بدعوى وقف إطلاق الصواريخ الفلسطينية باتجاه البلدات والمدن الإسرائيلية حول القطاع؛ إذ حذر رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت Ehud Olmert سكان القطاع من ردّ "إسرائيل" إن لم يرغبوا حركة حماس على وقف إطلاق الصواريخ². كما هدت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني Tzipi Livni خلال زيارتها لمصر في 2008/12/25، بإسكات الصواريخ التي تطلقها حماس من القطاع³، وأضافت بأن الموقف في غزة أصبح يمثل عقبة في طريق إقامة الدولة

الفلسطينية⁴. وقالت إن "سيطرة حماس على قطاع غزة ليست مشكلة لإسرائيل فقط... وما نفعه هو تعبير عن احتياجات المنطقة"⁵. ومن جهته، دعا رئيس حزب الليكود Likud بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu في 2008/12/25، الحكومة الإسرائيلية إلى شنّ هجوم على غزة، وقال: "إنني لا أعرف دولة تسقط فيها صواريخ ولا تفعل شيئاً... علينا الانتقال من سياسة تلقي الضربات إلى الهجوم، وترميم الكرامة الوطنية". كما دعا رئيس حزب "إسرائيل بيتنا" Yisrael Beitenu أفيجدور ليبرمان Avigdor Lieberman أولمرت إلى إقالة وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك Ehud Barak، إذا عارض الأخير شنّ عملية عسكرية واسعة في القطاع⁶.

وعلى إثر العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في 2008/12/27، أصدر إيهود أولمرت بياناً قال فيه: "في أعقاب خرق شروط التهدئة من جانب حركة حماس، والهجمات المتواصلة لسلطة حماس على مواطني جنوب إسرائيل، فقد أصدر الطاقم الوزاري المقلص في اجتماعه يوم الأربعاء الماضي [2008/12/24] تعليماته للجيش بالقيام بكل شيء من شأنه أن يقود إلى وقف إطلاق القذائف والهجمات من قطاع غزة". وأشار البيان إلى أن القوات الإسرائيلية "ستواصل عملياتها ضدّ عمليات إطلاق القذائف"⁷. وذهب أولمرت إلى أن "إسرائيل" تركز على ضرب المنظمات "الإرهابية" التي تعمل على تقويض الاستقرار في المنطقة كلها⁸، وقال إن "إسرائيل" ليست معنية بشنّ حرب طويلة، وإنما ستعمل على تحقيق أهدافها على وجه السرعة. وادعى أن "إسرائيل" لم تعلن الحرب ضدّ سكان قطاع غزة، وأنها ستعامل السكان بقفازات حريرية، غير أنها ستعامل بقبضة حديدية مع حماس⁹.

وأشار باراك إلى أن الجيش الإسرائيلي شرع بالإعداد لتوجيه ضربة قاسية إلى الحركة منذ عدة أشهر بهدف "تغيير الوضع القائم" في قطاع غزة، وأضاف قائلاً: إن العدوان "سيتوسع ويتعمق وفق الحاجة، لن أبث الأوهام، فنحن لا نعرف ما إذا ستكون عملية طويلة أم قصيرة، ولكننا مصرون وعازمون على وقف إطلاق القذائف من قطاع غزة"¹⁰. وحمل الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز Shimon Peres حماس المسؤولية عن الوضع الذي انتهى إليه قطاع غزة، مشيراً إلى أن "إسرائيل" لا تحارب الشعب الفلسطيني، بل تحارب "منظمة إرهابية" تهدف إلى القضاء على الدولة العبرية، والإخلال بالأمن والسلام في منطقة الشرق الأوسط¹¹. وكان بيريز قد صرح في مقابلة مع جريدة الشرق الأوسط، نشرت صباح يوم العدوان، "إن الجيش الإسرائيلي لن

يدخل قطاع غزة، ولن تكون هناك حرب. هناك وسائل أخرى من أجل وقف إطلاق صواريخ حماس، وأكد بيريز ذلك بقوله "لم نغادر قطاع غزة لنعود إليه"¹².

ودافعت وزيرة الخارجية الإسرائيلية عن العدوان، معتبرة أن الخيار الوحيد المتاح أمام "إسرائيل" ضد حماس هو الخيار العسكري. واتهمت ليفني حماس بأنها تستغل المدنيين في الأراضي التي تسيطر عليها "لأسباب دعائية"، وشددت على أنه "إذا أصيب مدنيون، فالمسؤولية عن ذلك تقع على عاتق حماس"¹³. وأشارت ليفني إلى أن "إسرائيل" ما تزال تفضل حلّ الدولتين، وتلتزم بعملية المفاوضات مع السلطة الفلسطينية الشرعية في الوقت الذي تجابه فيه حركة حماس¹⁴. وقالت ليفني في مقابلة مع فضائية الجزيرة، في 2008/12/29، إن "إسرائيل" لم تهاجم غزة بالنيابة أو بطلب من أي طرف إقليمي أو دولي، لكنها اعتبرت أن الهجوم على القطاع يحقق ما أسمته مصلحة العالم الحر، واعتبرته ردّاً "طبيعياً" على هجمات حماس على البلدات والمدن الإسرائيلية المحيطة بقطاع غزة. وعدت ليفني الشروط الإسرائيلية لوقف العمليات العسكرية ضدّ غزة؛ ومنها: أن تكفّ حماس عن مهاجمة البلدات الإسرائيلية المتاخمة لغزة، وأن تتوقف عن تهريب الأسلحة إلى داخل القطاع، وأن تفرج عن الجندي الإسرائيلي الأسير جلعاد شاليت Gilad Shalit. وأضافت في هذا السياق بأن أطرافاً عربية معتدلة تعتقد بأن حماس تمثل خطراً على عملية التسوية، وعلى حلّ الدولتين¹⁵.

ومن جهة أخرى، صرح نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي حاييم رامون Haim Ramon، إلى القناة العاشرة في التلفزيون الإسرائيلي بأن "الهدف من العملية هو إسقاط نظام حماس"، وأضاف "سنوقف إطلاق النار فوراً، إن تولى أحد مسؤولي الحكم، أيّ أحد عدا حماس"، وأكد أن "ما يقوم به الجيش الآن هو منع حماس من السيطرة على الوضع"¹⁶.

وعندما اقترحت فرنسا هدنة إنسانية لمدة 48 ساعة، ذكرت مصادر إسرائيلية أن كبار المسؤولين في مكتب أولمرت، تحفظوا على اقتراح باراك بالردّ بالإيجاب على المبادرة، ووصف المدير العام للخارجية الإسرائيلية المبادرة الفرنسية بأنها "سيئة لإسرائيل"¹⁷. وقال بيريز إن "إسرائيل" تريد "وقف الإرهاب"، وليس التوصل إلى هدنة مع قطاع غزة، الذي تسيطر عليه حماس¹⁸. كما أعلنت ليفني رفضها للاقتراح الفرنسي، بدعوى عدم وجود أزمة إنسانية في غزة، ولأن "حماس ستستغل أي وقف للنار كي تحسن موقعها

استعداداً للهجوم التالي“. وقالت ليفني إن هدف ”إسرائيل“ على المدى القصير ليس إطاحة حماس، موضحةً أن ”الطريقة الوحيدة [على المدى البعيد] ليتمكن الفلسطينيون من إقامة دولة تمرّ بتغيير الوضع في غزة“¹⁹.

وتعليقاً على الظروف التي خاضت خلالها ”إسرائيل“ الحرب قال الجنرال متان فلنائي Matan Vilnai، نائب وزير الأمن الإسرائيلي، إن الظروف الدولية والإقليمية السائدة حالياً، وضمن ذلك عدم انعقاد القمة العربية تتيح لـ ”إسرائيل“ استكمال حملتها على حركة حماس في قطاع غزة. وفي مقابلة أجرتها معه القناة الأولى الرسمية في التلفزيون الإسرائيلي قال فلنائي: إنه في حكم المؤكد أن العديد من الأطراف العربية تتفهم دوافع ”إسرائيل“ لخوض المواجهة ضدّ حركة حماس، منوهاً إلى أن التفهم العربي يعتبر أحد أهم الظروف التي أتاحت لـ ”إسرائيل“ شنّ هذا العدوان، وأضاف: هناك شعور لدى الكثير من الحكومات العربية بوجود قاسم مشترك بينها وبين ”إسرائيل“ في حربها ضدّ ما أسماه بالإسلام المتطرف²⁰.

وفي إثر الهجوم البري الإسرائيلي على غزة لم تستبعد ليفني إخفاق ”إسرائيل“ في الهجوم على القطاع، موضحةً بأن الدولة العبرية قد تهاجم قطاع غزة مرةً أخرى، إذا أخفق الهجوم الحالي في وقف إطلاق الصواريخ الفلسطينية. وأضافت ليفني لتلفزيون القناة الثانية العبري ”أمل أن تتمخض العملية عن هدوء على المدى البعيد. وبمجرد أن يطلقوا النار فسند بقوة عظيمة“. وتابعت ”ربما يحتاج الأمر إلى عمليات عدة في هذا الصدد. ولكن أمامنا صراع طويل، وعلينا أن نتحرك بقوة من وقت لآخر“²¹.

وعقب صدور قرار مجلس الأمن رقم 1860 بتاريخ 2009/1/8، الداعي لوقف إطلاق النار في القطاع، أعلن أولمرت أن ”إسرائيل“ ستواصل عملياتها في غزة بالرغم من صدور القرار. وقال إن ”إسرائيل“ لم تقبل يوماً أن تقرر أي جهة خارجية حقّها في الدفاع عن مواطنيها، وأضاف أن ”الجيش سيواصل عملياته دفاعاً عن مواطني إسرائيل، وسينجز المهمات الملقاة عليه في العملية“²². وأعلن أن الحرب ستنتهي في حال تحقيق هدفين رئيسيين: وقف سقوط القذائف الصاروخية على جنوب ”إسرائيل“، وضمان وقف تهريب الأسلحة إلى القطاع²³. وقالت وزيرة الخارجية الإسرائيلية إن ”إسرائيل“ تعمل وفق ما تستدعيه مصلحة أمنها، وأمن مواطنيها فقط²⁴. وذهبت إلى أن الهجوم الذي تشنّه تل أبيب في قطاع غزة ”ليس مجرد نزاع عابر يمكن أن ينتهي باتفاق“، مؤكدةً بأنه

لن يتوقف قبل أن يحقق أهدافه. وأعلنت عن رفض حكومتها القاطع لقرار وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن، ودعت نظراءها العرب الذين قالت إنهم "أنتقلوا للعيش في نيويورك" إلى فهم أن القرار "لا يعني لإسرائيل شيئاً"، وقالت: "علينا أن نفهم أنه في اليوم الذي يلي انتهاء العملية يجب أن نكون واثقين من عجز حماس عن إعادة التسلح"، مشيرةً إلى أنه لا يمكن السماح للحركة بتكديس الأسلحة، حتى دون استخدامها²⁵.

وفي سياق المواقف الإسرائيلية الأكثر تطرفاً دعا لبيرمان إلى الإبقاء قنبلة ذرية للقضاء على غزة، وقال "شعب إسرائيل لن يكون في أمان ما دامت حماس تحكم قطاع غزة، وعلينا الاستمرار في الحرب حتى إنهاء وجود حركة حماس، والقضاء عليها قضاء مبرماً". وأضاف إن "الحل يتمثل في أن نقتدي بالضبط بما قامت به الولايات المتحدة لحسم الحرب العالمية الثانية، ويتوجب علينا أن نتصرف بالضبط مع غزة كما تصرفتم الولايات المتحدة مع اليابان، وبالتالي لا داعي لاحتلال غزة"²⁶. وقال بنيامين نتنياهو إن على "إسرائيل" أن تقوم في نهاية الأمر بالقضاء على سلطة حركة حماس التي تسيطر على قطاع غزة. وقال "في حال قررت الحكومة [الإسرائيلية] تبني هذا القرار سوف ندعمها"، ورأى نتنياهو أنه "يجب على غزة التخلص من حماس"²⁷. كما دعا إلياهو "إيلي" يشاي "Eli" Yishai، رئيس حزب شاس Shas، إلى هدم آلاف المنازل الفلسطينية في قطاع غزة وسحق حركة حماس. وقال يشاي في لقاء تلفزيوني: "يمكن تدمير غزة، كي يفهموا بأنه لا يجب إغاضتنا". معتبراً أن الحملة العسكرية فرصة "لسحق آلاف المنازل للمخربين، كي يفكروا مرة قبل أن يطلقوا صاروخاً". ويشار إلى أن يشاي امتنع عن التصويت على العملية العسكرية بتبرير خشيته على أرواح الجنود موضحاً أنه من الواجب العمل على تقويض سلطة حماس بالرغم من الاحتجاجات في العالم²⁸.

وإزاء الموقف الإسرائيلي من المبادرة المصرية أعلن رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود أولمرت أن الحرب على غزة ستنتهي مع تحقيق هدفين رئيسيين: وقف سقوط القذائف الصاروخية على جنوب "إسرائيل"، وضمان وقف تهريب الأسلحة إلى القطاع، وأضاف "نشكر الرئيس [المصري حسني] مبارك على جهوده في هذا السياق وأرجو أن يصار إلى النتيجة التي تمكنا من وقف القتال، وأمل أن يثمر الحوار مع مصر إيجابياً"²⁹. وفي السياق ذاته اعتبرت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني أن الاتصالات مع مصر تنحصر في كيفية منع تهريب الأسلحة، ووضع ترتيبات أمنية، وقالت إنها اتصالات "ضد حماس

لا معها“. وأضافت في حديث إذاعي أن “إسرائيل” أثبتت لحركة حماس أنها غيرت المعادلة التي قضت بأن لا تردّ على إطلاق النار على أراضيها. وقالت: “حققنا الهدفين الرئيسيين من الحرب، الأول تغيير الوضع في الجنوب، وتغيير المعادلة التي باتت تقوم على ردّ عنيف على كل إطلاق نار، والثاني استعادة قدراتنا الردعية، ونجحنا في ذلك بضرب قدرات حماس وحوافزها لمحاربتنا“. وتابعت: “الآن نحن بصدد صيرورة سياسية لمنع تسلح حماس، ونقوم بفحص إمكان تحسين ضبط منع التهريب على الحدود المصرية مع القطاع، وهذه المهمة ليست ملقاة على مصر وحدها بل على المجتمع الدولي أيضاً أن يساهم في منع وصول صواريخ بعيدة المدى من إيران إلى القطاع“. وأضافت أن “إسرائيل ومصر تعملان بتناغم في ما يتعلق بالأهداف المطلوب تحقيقها“. وكررت ليفني أن “إسرائيل” لا تبحث عن التفاوض مع حماس أو أن توقع معها على ورقة، “بل لا يعنيني ماذا تقول... يجب أن لا تكون النتيجة النهائية للعملية العسكرية أن تحظى حماس بالشرعية وأمور أخرى لم تحققها في الماضي. هذا هو الردع. إنها باتت تعرف أنه في المرة المقبلة التي ستهاجمنا سنردّ عليها بشدة“. وأضافت مهددة أن عملية عسكرية أخرى في القطاع ممكنة “في حال تجرأت حماس وأطلت برأسها وضربت إسرائيل من جديد“. وأضافت أن “الحرب على الإرهاب طويلة وصعبة وسنلجأ إلى كل القوة العسكرية، لأنه هكذا تدار الحرب على الإرهاب، بقوة عسكرية وليس ببدلات“³⁰.

وفي 2009/1/16، وقّعت تسيبي ليفني مع نظيرتها الأمريكية كوندوليزا رايس Condoleezza Rice “مذكرة تفاهم“، نصّت على إسهام واشنطن بمساعدات تقنية ومراقبين؛ لمنع تهريب الأسلحة لحركة حماس، والعمل على تشكيل فرق مراقبة في رفح؛ لسدّ الأنفاق ووقف تهريب الأسلحة، في استجابة لمطلب إسرائيلي رئيسي للتوصل إلى وقف إطلاق نار في غزة³¹.

وفي 2009/1/17 أعلن إيهود أولمرت وقف العدوان على قطاع غزة من طرف واحد، بدعوى الاستجابة لطلب مصري بوقف العمليات العسكرية³². غير أن أولمرت رأى في وقف إطلاق النار جزءاً من تفاهم دولي يشمل مذكرة التفاهم التي تمّ التوصل إليها مع الإدارة الأمريكية حول منع التهريب إلى غزة، والرسالة المشتركة، للرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي Nicolas Sarkozy، والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل Angela Merkel، ورئيس الوزراء البريطاني جوردون براون James Gordon Brown، ورئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني Silvio Berlusconi، حول منع تهريب

السلاح إلى غزة³³. وهدد أولمرت أنه في حالة عدم احترام حماس لوقف النار، فإن كل الخيارات ستكون مفتوحة بما في ذلك الانتقال إلى المرحلة الثالثة من خطة الحرب؛ وهي إسقاط حكم حماس³⁴.

غير أن يوفال ديسكين Yuval Diskin، رئيس جهاز الأمن العام (الشاباك) Shabak، حذر من استعادة حماس وباقي فصائل المقاومة قدراتها، بل وتعزيزها خلال شهور. ورأى ديسكين في تقرير أمني قدمه إلى الحكومة الإسرائيلية أن "منظومة إنتاج وتخزين الوسائل القتالية التابعة لحماس تضررت بشكل كبير، إلا أنها ما زال تمتلك قدرات صاروخية"³⁵. ومن جهته، هاجم بنيامين نتنياهو وقف إطلاق النار، وقال إن الجيش الإسرائيلي وجه ضربةً قاصمةً لحركة حماس، وكان بإمكانه أن يقضي على قدرات هذه الحركة عسكرياً ويسقط حكمها، لكن الحكومة أوقفت الحرب قبل أوانها، وتركت حماس في الحكم. وفي غضون بضعة شهور ستستعيد حماس سيطرتها على الشريط الحدودي بين غزة وسيناء المصرية، وترمم الأنفاق، وتعود إلى تهريب الأسلحة³⁶.

وفيما يتعلق بإعادة إعمار غزة شدد أولمرت، على أنه "يجب ألا يُسمح لحركة حماس بقيادة عملية إعادة الإعمار في قطاع غزة؛ لأن ذلك سيمنحها شرعية". وأضاف أن "إسرائيل ستعمل على أن تتولى إعادة الإعمار منظمات دولية بالتعاون مع الأمم المتحدة ومصر والسلطة الفلسطينية"، مشيراً إلى أنه "بهذه الشروط فقط ستتعاون إسرائيل بشكل كامل مع هذه العملية الرامية إلى مساعدة المدنيين الأبرياء"³⁷.

وأعقب العدوان الإسرائيلي مفاوضات غير مباشرة بين حماس و"إسرائيل"، جرت بوساطة مصرية، حول اتفاق تهدئة يفترض أن يُفضي إلى إنهاء الحصار المفروض على قطاع غزة. غير أن هذه المفاوضات لم تؤد إلى أي اتفاق، بسبب تعمد الحكومة الإسرائيلية تأخيرها إلى حين إتمام صفقة شاليط. وكان صدر بيان عن مكتب أولمرت في 2009/2/14 جاء فيه أن "إسرائيل" لن توافق على تهدئة، أو تفتح معابر قطاع غزة قبل إطلاق سراح شاليط³⁸. فيما حسمت الحكومة الأمنية الإسرائيلية المصغرة موقفها في 2009/2/18، بالموافقة بالتصويت لصالح موقف أولمرت³⁹. وهدفت "إسرائيل" من وراء هذا الربط إلى ابتزاز حماس بإبقاء الحصار المفروض على القطاع، حتى يكون ورقة ضغط على الحركة تسهل على الأولى إنجاز صفقة لتبادل الأسرى بتكلفة أقل. وحسب البيان الصادر عن اجتماع الطاقم الوزاري في 2009/2/18، فإن "إسرائيل" ترفض الحديث عن

أية تهديّة مع قطاع غزة، ”على الرغم من تثمينها للجهود المصرية في هذا الإطار“، وشدد البيان على أن التهديّة وفتح المعابر مرتبطان بإطلاق سراح الجندي الإسرائيلي. وقال أولمرت خلال الاجتماع، إن جميع المعابر مع قطاع غزة ستبقى مغلقة، وسيتمّ فتحها من أجل تمرير البضائع الأساسية جداً إلى القطاع، وهذا بالاتفاق مع السلطة الفلسطينية والجهات المختصة، وبوتيرة تحددها ”إسرائيل“⁴⁰.

ثانياً: تقييم الأداء السياسي الإسرائيلي وتداعياته:

1. ظروف اندلاع العدوان وأهدافه:

بدأت الحكومة الإسرائيلية التحضير لاحتمال العدوان على غزة منذ سريان الهدنة الأخيرة في حزيران / يونيو 2008، بما في ذلك وضع جهاز إعلامي وعلاقات عامة كبيرين لتحضير الرأي العام الغربي لحرب على حكومة حماس ”الإرهابية“ في قطاع غزة⁴¹. ويظهر أن القيادة الإسرائيلية قررت بدء العدوان قبل تولي الرئيس الأمريكي (المنتخب) باراك أوباما Barack Obama الرئاسة في واشنطن، نظراً لأنها كانت تثق في دعم إدارة الرئيس الأمريكي (السابق) جورج بوش George Bush، ولم تكن تريد مفاجأة الرئيس الجديد بحرب في الشرق الأوسط. ولذا، يرجح أن العدوان خُطّ له أصلاً لأن يستمر لأيام قليلة، ويستبعد أن القيادة الإسرائيلية اضطرت إلى وقف إطلاق النار لتفسح المجال للإعلامي لتولية الرئيس الأمريكي الجديد⁴².

وبدا أن رفض حماس تجديد التهديّة في 19 كانون الأول / ديسمبر، بالشروط الإسرائيلية، وانطلاق الصواريخ وقذائف الهاون من قطاع غزة، ردّاً على الاختراقات والاعتداءات الإسرائيلية، شكل تحدياً حقيقياً للدولة العبرية، لسيادتها ودورها وموقعها في المنطقة. فالدور الأول لأية دولة هو توفير الأمن لشعبها، وبالرغم من أن الصواريخ والقذائف الفلسطينية لم توقع خسائر ملموسة في الأرواح، إلا أنها كانت تحدياً حقيقياً لرؤية الدولة العبرية لذاتها ودورها⁴³.

ويُضاف إلى ذلك بأن القيادة الإسرائيلية هدفت من وراء عدوانها على القطاع إلى ترميم ”قدرة الردع“ لدى مؤسستها العسكرية في أعقاب حربها على لبنان في صيف 2006. وسعت في هذا العدوان إلى تعميم ما أطلق عليه ”عقدة الضاحية الجنوبية“؛ إذ اعتمد الجيش الإسرائيلي قوة نيران كبيرة أدت إلى مقتل وجرح

الآلاف من الفلسطينيين وإلى دمار واسع، هدف من ورائه إلى فرض تغيير جوهري في معادلة الكلفة والجدوى لدى المقاومة الفلسطينية. كما أن الانتخابات الإسرائيلية المبكرة في 2009/2/10 كانت حاضرةً على أجندة مؤسسة اتخاذ القرار السياسي في الدولة العبرية؛ إذ أشارت استطلاعات الرأي الإسرائيلية إلى صعود اليمين الإسرائيلي بقيادة الليكود في أي انتخابات مقبلة. ومن هنا لجأ الائتلاف الحاكم الإسرائيلي، وعلى رأسه حزبي كاديما Kadima والعمل Labor، إلى توظيف العدوان على غزة لغاية تحسين وضعه الانتخابي.

وفي سياق إقليمي رأت القيادة الإسرائيلية أن رفض حماس الالتحاق بالحوار الوطني الفلسطيني في القاهرة على أساس من الشروط التي طرحتها الوساطة المصرية في تشرين الثاني / نوفمبر 2008، أدى إلى كشف الغطاء العربي، المصري - السعودي، عن قطاع غزة؛ وأن بعض الدول العربية كانت ترغب في معاقبة حماس وإخضاعها، وبالتالي تعزيز فرص التفاوض على تسوية نهائية برعاية إدارة أوباما.

عمد كثير من المسؤولين الإسرائيليين إلى خفض سقف توقعاتهم من العدوان في ضوء التجربة الإسرائيلية في حرب لبنان الثانية، فضلاً عن أن "إسرائيل" لم تفصح عن الهدف العسكري المباشر الذي سعت إلى تحقيقه من وراء عدوانها؛ وهو ما يعرف بالتكليف العسكري. فلم تحدد الحكومة الإسرائيلية المصغرة أو وزارة الدفاع الإسرائيلية، بشكل واضح، الهدف العسكري الذي كلفت قيادة المنطقة الجنوبية للجيش بتحقيقه: هل كان الهدف، مثلاً، إسقاط حكومة حماس في غزة، وفتح المجال لعودة سلطة رام الله؛ أو إضعاف حماس وإيقاع أكبر خسائر بشرية ومادية بقوى المقاومة في قطاع غزة؛ أو العودة إلى فرض احتلال إسرائيلي مباشر على القطاع؛ أو أي هدف آخر؟ وقد أفضى الغموض الذي أحاط بالهدف العسكري المباشر إلى غموض في الهدف السياسي النهائي من الحرب. ومع ذلك فيرجح المراقبون بأن إعادة احتلال القطاع لم يكن هدفاً إسرائيلياً. وبالرغم من أنه من غير الواضح ما إذا كانت القيادة الإسرائيلية استهدفت إسقاط حكومة حماس، وتسليم القطاع لإدارة رام الله، إلا أنه من الممكن أن الإسرائيليين توقعوا أن تؤدي الضربات المؤلمة لقوى المقاومة والأهالي إلى انقلاب السكان على إدارة حماس وإلى تقويض معنويات قيادة حماس، مما يدفعها إلى أن تتقدم للقاهرة برغبتها في التخلي عن الحكم المنفرد والترحيب بعودة سلطة الحكم الذاتي للقطاع. وليس ثمة

شك في أن القيادة الإسرائيلية استهدفت إيقاع أكبر خسائر ممكنة بقوى المقاومة؛ بشراً وسلاحاً ومعدات، ومعاقبة أهالي قطاع غزة لدعمهم حماس وحكومتها⁴⁴.

2. إدارة العدوان سياسياً وتدابيره:

قادت الحكومة الإسرائيلية المصغرة معظم مراحل العدوان، سياسياً وعسكرياً؛ ولكن القرار في النهاية كان محصوراً بالثلاثي؛ أولمرت وليفني وباراك. وقد اتسمت علاقات الثلاثي الإسرائيلي طوال أسابيع الحرب، وبعدها، بالتنافس والاختلاف.

وكانت الحكومة الإسرائيلية شكلت عدداً كبيراً من طواقم العلاقات العامة، التي كلفت بالاتصال بكافة وسائل الإعلام الغربية، لتقديم وجهة النظر الإسرائيلية وتبرير العدوان، باعتباره خياراً اضطررت إليه الدولة العبرية للدفاع عن مواطنيها ضدّ صواريخ "المنظمات الإرهابية" التي تتحكم بقطاع غزة. ولم يكن الخطاب الذي وجهه الإسرائيليون إلى أهالي القطاع مختلفاً كثيراً؛ فقد قيل للفلسطينيين إن العدوان الذي يتعرضون له جاء نتيجة لسياسات حماس، وأن الدولة العبرية تعمل على مساعدة السلطة الفلسطينية؛ ودعا المسؤولون الإسرائيليون أهالي القطاع للإطاحة بحكومة حماس. ولكن ما إن اتضح أن أهالي القطاع يقفون خلف قوى المقاومة وضدّ العدوان، وأن صوتاً لم يصدر لانتقاد حماس، حتى تغير الخطاب الإسرائيلي وأصبح أكثر وضوحاً في تأكيده على تركيع قطاع غزة.

رفض الإسرائيليون الاستجابة لدعوة الرئيس الفرنسي ساركوزي إعلان هدنة مؤقتة، للسماح بمرور قوافل الإغاثة والمعونات الطبية للقطاع؛ ولكن الواضح أن الإسرائيليين كانوا مطمئنين لموقف الدول الأوروبية الرئيسية، على الأقل إن لم تستمر الحرب طويلاً. غير أن "إسرائيل" تفاجأت بردّ فعل الرأي العام العربي والعالمي، فسرعان ما سمحت بالفعل بمرور بعض العون الطبي من الجانب المصري. كما أعلنت وزيرة الخارجية الإسرائيلية معارضتها وجود قوات رقابة دولية في قطاع غزة، تماماً كما كانت قيادة حماس والجهاد وقوى المقاومة الأخرى أعلنت رفضها لوجود هكذا قوات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغموض الذي شاب الأهداف المباشرة للحملة على القطاع، شاب أيضاً الإدارة السياسية الإسرائيلية لمجريات العدوان. فما إن أعلن الرئيس المصري الخطوط العامة للمبادرة المصرية، حتى أظهر الإسرائيليون استعداداً للتعامل

مع المبادرة، بدون أن يحددوا موقفاً صريحاً منها، وما إذا كانوا ينتظرون تحقيق أهداف بعينها، عسكرياً أو من خلال التفاوض. وقد كلفت الحكومة الإسرائيلية عاموس جلعاد Amos Gilad، مساعد وزير الدفاع للشؤون السياسية، بإدارة المفاوضات مع القاهرة. ولكن ما إن اتضحت ملامح التحرك المصري حتى بدأ الخلاف بين أعضاء القيادة الإسرائيلية الثلاثية حول ما إن كان من الأفضل للدولة العبرية الوصول إلى اتفاق تهدئة طويلة ومفتوحة زمنياً؛ وهو ما طرحه باراك، أو عدم السعي لاتفاق تهدئة وإبقاء القطاع تحت تهديد الرد الإسرائيلي المستمر على كل إطلاق للصواريخ، وهو ما طرحته ليفني وأولمرت. بيد أن القيادة الإسرائيلية لم تعط أهمية خاصة للجهد المصري التفاوضي، ولم يكن ثمة ارتباط منطقي بين القرار الإسرائيلي بوقف إطلاق النار، الذي أعلن بشكل منفرد، وبين نتائج الوساطة المصرية بين حماس، من جهة، والمفاوض الإسرائيلي، من جهة أخرى.

لجأ الإسرائيليون إلى الولايات المتحدة وأوروبا لتوفير الإطار السياسي لوقف العدوان. فبعد يومين من إعلان الدولة العبرية وقف إطلاق النار وبدء الانسحاب من قطاع غزة، وقّعت وزيرة الخارجية الإسرائيلية ووزيرة الخارجية الأمريكية في 2009/1/16 بروتوكول تفاهم في واشنطن، تعهدت فيه إدارة بوش بالعمل على منع تهريب السلاح إلى قطاع غزة. وبدا وكأن هذا الاتفاق كان الإنجاز السياسي الأهم للعدوان. وبعد ثلاثة أيام، وصل إلى الدولة العبرية وفد القادة الأوروبيين، في محطتهم الثانية بعد شرم الشيخ، حيث أكدوا من جانبهم العمل على وقف تهريب السلاح للقطاع، مؤكداً بالتالي على توفير هذا الغطاء السياسي للقرار الإسرائيلي بوقف النار والانسحاب.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى تصريح البروفيسور يحزكائيل درور Yehezkel Dror، عضو لجنة فينوغراد Winograd Commission التي حققت في أسباب فشل الجيش الإسرائيلي في حرب لبنان في تموز/ يوليو 2006، من أن "إسرائيل فشلت في الحرب على غزة كما فشلت أيضاً في لبنان، بسبب المراوحة في المكان وعدم القدرة على الحسم في القرار". وقال درور "من الصعب الإقرار بقياس مدى انتصار الجيش الإسرائيلي في الحرب الإسرائيلية على غزة، مقابل الإنجاز الذي حققته حركة حماس بقوة موقفها". وأكد أن "إسرائيل" لم تنجح في إيجاد قوة ردع أمام الصواريخ الفلسطينية، التي ما زالت تسقط على المستوطنات الإسرائيلية في المناطق الجنوبية⁴⁵.

وفي سياق متصل اتهمت مجموعة من الكتاب الإسرائيليين في جريدة هآرتس Haaretz، في تحليل حول نتائج العدوان وتداعياته على الجانب الإسرائيلي، الحكومة الإسرائيلية بالإخفاق في تحقيق تسوية سياسية ملزمة؛ معتبرين أن التزامن بين العمل العسكري والسياسي في قطاع غزة كان منقوصاً؛ ذلك أن "إسرائيل" في النهاية تراجعت دون أي تسوية حقيقية. ورأى هؤلاء المحللون أن ما حصل في غزة هو شبيه بما حصل في لبنان، حيث كان أمام "إسرائيل" في قطاع غزة إمكانياتان للعمل؛ الاكتفاء بالعملية الجوية الكبيرة التي نفذت في 2008/12/27، والإعلان عن وقف القتال وحركة حماس في حالة صدمة، أو تفعيل قوة أكبر وأسرع من أجل تحقيق إنجازات برية على الأرض. بيد أنه، حسب الكتاب، مثلما حصل في لبنان، فقد اختارت "إسرائيل" الطريق الوسط، فهي تتقدم ببطء باتجاه احتلال جزئي تكون نتيجته محدودة، وعندها تنسحب مع نفاذ صبر المجتمع الدولي⁴⁶.

خاتمة:

في المحصلة، كان من المفترض ألا تكون الإدارة السياسية الإسرائيلية للعدوان شأنًا معقدًا؛ حيث شكّل العدوان حرباً موجهة ضدّ منطقة محدودة، وضدّ طرف سياسي واحد، يعيش تحت حصار دولي ولا يتمتع بعلاقات حسنة مع عدد ملموس من الدول العربية. وكان يفترض بالتالي أن تكون الإدارة السياسية الإسرائيلية للعدوان بالغة الكفاءة والوضوح، ولكن لم تكن تلك هي الصورة التي أظهرتها القيادة الإسرائيلية للعدوان. فعلى الرغم من أن "إسرائيل" لم تعلن أهداف العدوان على وجه التحديد، غير أن تراجعاً تدريجياً قد طرأ على لهجتها المتشددة التي رافقت بداية العدوان؛ حيث عزت وقفها لإطلاق النار إلى تحقيق الأهداف في ضرب البنى التحتية للمقاومة، ومنع تهريب السلاح عبر الأنفاق، مع تناسي بعض الأهداف التي تداولتها أروقة السياسة الإسرائيلية في وقت سابق، علاوة على الانسحاب الكامل من قطاع غزة دون قيد أو شرط؛ وهو ليس سلوكاً إسرائيلياً معتاداً.

ويُشار إلى أن الدولة العبرية لم تستفد من الإمكانيات والظروف المتاحة داخلياً وعربياً ودولياً، خصوصاً عندما سارت سفينة أداء مؤسستها العسكرية بما لا يشتهي المستوى

السياسي فيها. ولعل الأداء السياسي والعسكري المتميز لفصائل المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة لعب الدور الأبرز في إرباك الأداء السياسي والعسكري الإسرائيلي، وأفضل أهداف العدوان. فضلاً عن أن بيئة تزايد التعاطف المحلي والعربي والدولي مع فصائل المقاومة وضدّ "إسرائيل"، أربك قدرة الطرف الإسرائيلي على المناورة السياسية من ناحية، وأدى إلى تشويه صورة "إسرائيل" واهتزازها سياسياً وإعلامياً، وانتشار موجات الاستنكار والعداء لها عالمياً من ناحية أخرى.

هوامش الفصل الأول

- ¹ *The Jerusalem Post* newspaper, 27/5/2008, see: <http://www.jpost.com/servlet/Satellite?cid=1211434114854&pagename=JPost%2FJPArticle%2FShowFull>
- ² *The Jerusalem Post*, 25/12/2008, see: <http://www.jpost.com/servlet/Satellite?cid=1230111697271&pagename=JPost%2FJPArticle%2FShowFull>
- ³ جريدة القدس العربي، لندن، 2008/12/26.
- ⁴ جريدة الأهرام، القاهرة، 2008/12/26.
- ⁵ القدس العربي، 2008/12/26.
- ⁶ جريدة الخليج، الشارقة (الإمارات)، 2008/12/25.
- ⁷ جريدة الغد، عمان، 2008/12/28.
- ⁸ الخليج، 2008/12/28.
- ⁹ جريدة الشرق الأوسط، لندن، 2009/1/2.
- ¹⁰ الغد، 2008/12/28.
- ¹¹ القدس العربي، 2008/12/31.
- ¹² الشرق الأوسط، 2008/12/27.
- ¹³ الغد، 2008/12/28.
- ¹⁴ الشرق الأوسط، 2008/12/28.
- ¹⁵ موقع الجزيرة نت، 2008/12/29، انظر: <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/5EED2AB9-FF94-4C13-9ADE-F1AAD1DFFB56.htm>
- ¹⁶ الشرق الأوسط، 2008/12/30.
- ¹⁷ وكالة سما الإخبارية، غزة، 2008/12/31، انظر: <http://www.samanews.com/index.php?id=details&sid=47039>
- ¹⁸ الغد، 2009/1/6.
- ¹⁹ جريدة الحياة، لندن، 2009/1/2.
- ²⁰ القدس العربي، 2009/1/2.
- ²¹ الخليج، 2009/1/4.
- ²² الحياة، 2009/1/10.
- ²³ الحياة، 2009/1/13.
- ²⁴ موقع بي بي سي الإخباري بالعربية، 2009/1/9، انظر: http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/middle_east_news/newsid_7819000/7819381.stm
- ²⁵ موقع القناة الإخبارية الأمريكية سي إن إن بالعربية، 2009/1/12، انظر: <http://arabic.cnn.com/2009/gaza.escalation/1/11/clashes.intensifies/index.html>
- ²⁶ الشرق الأوسط، 2009/1/14.
- ²⁷ الغد، 2009/1/14.
- ²⁸ موقع عرب 48، 2009/1/6، انظر: <http://www.arabs48.com/display.x?cid=6&sid=6&id=59763&ar=>
- ²⁹ الحياة، 2009/1/13.
- ³⁰ المصدر نفسه.
- ³¹ الحياة، 2009/1/17.

- ³² الشرق الأوسط، 2009/1/18.
- ³³ جريدة الأيام، رام الله، 2009/1/18.
- ³⁴ الشرق الأوسط، 2009/1/18.
- ³⁵ عرب 48، 2009/1/19، انظر: <http://www.arabs48.com/display.x?cid=6&sid=6&id=60066>
- ³⁶ الشرق الأوسط، 2009/1/19.
- ³⁷ جريدة السفير، بيروت، 2009/1/21.
- ³⁸ الشرق الأوسط، 2009/2/15.
- ³⁹ الشرق الأوسط، 2009/2/19.
- ⁴⁰ الغد، 2009/2/19.
- ⁴¹ جريدة هآرتس، 2008/12/27، انظر: <http://www.haaretz.co.il/hasite/spages/1050419.html>
- ⁴² بشير نافع، الحرب على غزة، موقع مركز الجزيرة للدراسات، 2009/4/9، انظر: <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/49FB5319-C422-4491-889C-88F8A1D1BC69.htm>
- وعزمي بشارة، ”برنامج بلا حدود“ فضائية الجزيرة، 2009/2/4، انظر: <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/532C00A7-1EFA-49D6-A4DD-F290D9D6EA1F.htm>
- ⁴³ بشير نافع، الحرب على غزة.
- ⁴⁴ المصدر نفسه.
- ⁴⁵ الجزيرة نت، 2009/3/16، انظر: <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B8B255FE-E508-4F4B-8E81-18EE0A071552.htm>
- ⁴⁶ Aluf Benn, Amos Harel and Avi Issacharoff, 40 days after war, Hamas rule of Gaza gaining legitimacy, *Haaretz* newspaper, 27/2/2009, see: <http://www.haaretz.com/hasen/spages/1067318.html>